تأملات في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾

أياد عبد الله

المقدمة:

الحمد لله القائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، والصلاة والسلام على خير خلق الله كلهم سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فكلما يكتشف العلماء شيئاً جديداً نجد في القرآن شرحاً وتبياناً دقيقاً له، وليس غريباً أن يصف الله كتابه بأنه تبيان لكل شيء، وكلما كان اكتشاف العلماء لظواهر الكون وتفاصيله دقيقاً وصحيحاً اتفقوا مع ما جاء في القرآن الكريم من إعجاز علمي. إن القرآن يتحدث بمنطق علمي، وهذا يدل على عظمة كتاب الله تعالى، الذي يحوي حقائق الماضي والمستقبل، هذا الكتاب لو أن الله تعالى أنزله على جبل، لتصدع وخرّ خاشعاً أمام عظمة كلام الله عز وجل.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2]. فنظام الليل والنهار، حيث يزيد هذا وينقص ذاك، وبالعكس بحسب الفصول المختلفة، وبقاع الأرض في نظم ثابت، وكذا بالنسبة للقمر والشمس، واختلاف طلوعهما وغروبهما واختلاف جريانهما ومسيرهما، وكل منهما يجري لأجل مسمى في نظام وتدبير

١- سورة النحل، الآية: ٨٩.

٢- سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠- ١٩١.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

دقيق. فالليل يُولَج في النهار، والنهار يُولَج في الليل، والشمس والقمر مسخران إلى أجل مسمى، ثم ينتهيان إلى مصيرهما في الوقت المحدد كما هو مقدر. فمن يشاهد هذا النظام الجاري ويمعن فيه لا يشك في أنه نظام دقيق، ومُدَبَّر وموقوت ومفصَّل، وليس مصادفةً ولا عبثاً. ومن يشاهد نظام الليل والنهار، والشمس والقمر لم يكد يغفل عن عظمة الخالق وعظمة أعماله و دقتها.

إن المتأملَ في آيات الله بصفاء قلب، وحضور عقل سيفتح الله عليه بقدر خلوص نيته ليصل إلى ما يبتغي خالصاً لوجهه الكريم، فيفتح سبحانه ما أراد من الأسرار في الأنفس والآفاق. وتبقى مزية المنهج القرآني في مخاطبة الفطرة بالحقائق الكونية لا في صورة نظرية، ولكن في صورة واقعية، صورة تتجلى فيها قدرة المبدع وتقديره ورحمته وتدبيره، صورة مؤثرة في العقل والقلب موحية للبصيرة والوعي دافعة إلى التدبر والتذكر، وإلى استخدام العلم والمعرفة للوصول إلى الحقيقة المتناسقة!

وإعجاز الله تعالى بيّن في آيات الكون فلو أخذنا مثلا توهج الشمس، كيف يفسر العلماء استمرار توهجها؟ فهي سلسلة من الانفجارات الهايدروجينية المنتظمة منذ بلايين السنين، وقد أثبت العلم الحديث أن الشمس تستهلك حوالي سبعمائة مليون طن من الهايدروجين في الثانية الواحدة، عندما يتحول الهيدروجين إلى ٦٩٥ مليون طن من الهيليوم و٥ ملايين طن من الطاقة نتيجة الاندماج النووي فترتفع درجة الحرارة في قلبها نتيجة عملية التفاعلات النووية[٣]. وهذه نتيجة علمية مقبولة، فهي إذن مجموعة من القنابل الهايدروجينية الجبارة مودعة في كوكب الشمس تنفجر بتسلسل دقيق و نظام محكم! ومن العجيب أنه لم يحدث قط أن تضاعفت انفجارات وحرارة الشمس لتحرق الأرض ومن عليها! أليست هذه نعمة عظيمة من الله؟ وهكذا تبدو الشمس كمستودع أمين للقنابل يحتوي على كل شروط الأمان اللازمة لحفظ القنابل! فلماذا لاينفجر المخزون دفعة واحدة؟ هذا هو المنطق العلمي، وهل يستطيع علماء الدنيا تبرير عدم حصول ذلك؟ أليس هذا إعجازًا إلهيًّا؟ والجواب ببساطة متناهية: أن هذا هو أمر الله تعالى وإرادته، إذ قال: "كنْ" فتعمل طائعة بأمره ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٤] فالشمس أتت طائعة فلا بد أن تعمل وهي طائعة أيضاً بمشيئة الخالق المسيطر، وهكذا يسير الكون كله.

٣- انظر الشمس في **الموسوعة البريطانية**: **Sun.** *Encyclopedia Britannica*. Retrieved April ٢١, ٢٠٠٩, from *Encyclopedia Britannica*, ٢٠٠٦ Ultimate Reference Suite DVD.

٤- سورة فصلت، الآية: ١١.

يدور هذا البحث حول قول الحق جلّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾(٥). ومن أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله أن الآية الكريمة تأتي بألفاظ محددة، يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني، وتتسع هذه المعرفة باستمرار، مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد. نسأله جلت قدرته أن يمن علينا برحمة منه للوصول إلى اضافة جديدة صحيحة لخدمة آية من كتابه العزيز، الذي سيبقى أمد الدهر مشرعاً لكل جديد، مستوعباً علوم الأولين والآخرين إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

مشكلة البحث:

يحاول الباحث الإجابة عن سؤال مركزي مهم هو: ما المقصود بقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾؟ وإذ لاننكر وجود العديد من الآراء القيمة لمفسرين أجلاء كرسوا حياتهم لخدمة القرآن العظيم، ولا نحاول أن نقلل من تفسيراتهم الرصينة الجادة، بل العكس، فإننا نكن لآرائهم وتفاسيرهم وجهودهم احتراماً وتقديراً عظيما.

منهجية البحث:

المنهج المتبع هو المنهج الوصفي والتحليلي بالرجوع إلى آيات القرآن الكريم وكتب التفسير وآراء الفقهاء والمفسرين، والمعلومات العلمية الدقيقة من الموسوعات العلمية الأجنبية.

هيكلية البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة. أما المباحث فهي:

المبحث الأول: حقائق عن الأرض والشمس والقمر.

المبحث الثاني: تفسير العلماء للآية الكريمة.

المبحث الثالث: فضل الله تعالى في آيتي الليل والنهار.

المبحث الرابع: تفسير الباحث للآية الكريمة.

المبحث الأول: حقائق عن الأرض والشمس والقمر:

المطلب الأول: الحقائق.

الأرض والسماء، والشمس والقمر آيات من آيات الخالق جلت قدرته، وقد أقسم بها جل ثناؤه

٥- سورة الإسراء، الآية: ١٢.

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾[٦]، وحري بنا أن نتأمل الإعجاز العلمي في هذه الآيات الكونية، ونستعرض بعض الأرقام التي اعتمدها الباحث من **الموسوعة البريطانية**، وهي:

الأرض[٧]:

جاءت كلمة "الأرض" في القرآن الكريم ٤٤٤ مرة، دلالة على أهميتها البالغة للإنسان والحياة. فعمر الأرض يساوي تقريبا ٤٦٠٠ مليون سنة حسب تخمين أهل العلم. مساحة الأرض: ٥١٠١٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع، ٢٩٪ منه يابسة و٧١٪ ماء. وزن الأرض ٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ أي (ستة آلاف مليون تريليون طن). تبلغ كتلة الأرض حوالي ٥٫٩٥ × ٢٤١٠ كغ. و معدل كثافة الأرض ٥٫٥٢٠ غ/ سم٣، فهي بذلك أكبر الكواكب كثافة. وهذا جلي في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾[٨]، وما طحاها: فـ: "ما" مصدرية، وطحوها وتسطيحها وبسطها ليمكن الخلق التصرف عليها، أي أقسم ببسطها. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾[٩] والدحو: البسط، دحوت أدحو دحوا، دَحَاهَا بسطها و مدها. ومن هذا يتبين الإعجاز القرآني في مدى اهتمامه تبارك وتعالى بخلق الأرض ومدها بكل الثروات والخيرات ليضمن للإنسان استمرار الحياة في الأرض، والحالة على غير ذلك في بقية الكواكب، والله أعلم.

الشمس[١٠]:

الشمس هي الأخرى معجزة عظيمة. إذ يبلغ حجمها: ١٤١٢٢ × ١٠ ٧ متر مكعب، وحجمها ١٣٠٠٠٠٠ قدر حجم الأرض. ومعدّل بعد الشمس عن الأرض هو ١٤٩٦ مليون كيلو متر. كتلة الشمس: تعادل: ١٠٢٧ × ١٩١٨٧٤ طن، وكتلتها تساوي ٣٣٢٩٤٦ مرة حجم الأرض. تبلغ طاقة الشمس ٣٨٦ بليون بليون ميكا واط. وحرارة سطح الشمس ٥٨٠٠ درجة مئوية، وحرارة باطن

٦- سورة الشمس، الآيات: ١-٦.

٧- **Earth.** *Encyclopedia Britannica*. Retrieved April ٢١, ٢٠٠٩, from *Encyclopedia Britannica* ٢٠٠٦ Ultimate Reference Suite DVD.

٨- سورة الشمس، الآية: ٦.

٩- سورة النازعات، الآيتان: ٣٠-٣١.

١٠- Sun. *Encyclopedia Britannica.* Retrieved April ٢١, ٢٠٠٩, from *Encyclopedia Britannica* ٢٠٠٦ Ultimate Reference Suite DVD.

الشمس ١٥٠٦مليون درجة مئوية. حجم الشمس أكبر بـ: ١٦٦٥ مرة من حجم القمر وكتلة الشمس أكبر بـ: ٥٩٩٣٠٠٢٨ مرة من كتلة القمر.

تتكون المجموعة الشمسية من أحد عشر كوكبا، فحتى عام ١٧٨١م كان عددها ستة وهي: عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، وهي ترى بالعين المجردة، حين اكتشف الكوكب السابع أورانوس، أما الكوكب الثامن فقد اكتشف عام ١٨٠١م وهو مجموعة كبيرة من الكويكبات الكائنه بين المريخ والمشتري مثل سيريس، إريس وفي عام ١٨٤٦م اكتشف الكوكب التاسع نبتون و في ١٩٣٠م اكتشف بلوتو وكان اكتشاف الكوكب الحادي عشر سيدنا (Sedna) في ١٤/ ١١/ ٢٠٠٣م وهو على بعد تسعين وحدة فلكية، وأعلن عنه في ١٥/ ٣/ ٢٠٠٤م، وهذه المجموعة هي جزء من مجرّة درب التبانة، والأرض ثالث كوكب من حيث البعد عن الشمس في نظامنا الشمسي، والأرض خامس كوكب في المجموعة الشمسية من حيث الحجم (بعد المشتري وزحل وأورانوس ونبتون). واستنادا إلى الموسوعة أيضاً تدور الأرض حول محورها دورة كاملة في ٩٣٤ و ٢٣ ساعة (٢٣ ساعة و ٥٦ دقيقة و٤ ثواني) وهذا هو اليوم، بينما تدور حول الشمس مرة كل ٣٦٥٠٢٥٦ يوماً وهذه هي السنة. وتبطيء الأرض سرعتها بمقدار ثانية كل عشر سنوات. إنها ليست مصادفة أن يتوصل العلماء عام ٢٠٠٣م إلى أن المجموعة الشمسية تتكون من أحد عشر كوكبا وهذا العدد هو ما ورد في رؤيا يوسف عليه السلام[١١] في قول الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[١٢].

القمر[١٣]:

يبلغ نصف قطر القمر ١٧٣٨ كيلو متراً، وحجمه خُمس حجم الأرض تقريبا، وكتلته أقل بـ: ١٨ مرة من كتلة الأرض. معدل بعد القمر عن الأرض ٣٨٤ ألف كيلومتر، فالشمس أبعد عن الأرض من القمر حوالي ٤٠٠ مرة. سرعة دوران القمر حول الأرض ٣٦٨٠ كم/ ساعة.

تتكون قشرة القمر من المواد الأوّلية الآتية: يورانيوم، ثوريوم، بوتاسيوم، أكسجين، سيليكون، مغنيسيوم، حديد، تيتانيوم، كالسيوم، المنيوم، والهيدروجين. وعندما تسقط إشعاعات الشمس والأشعة

١١- زغلول نجار، **تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم**، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ص ٣٦١.

١٢- سورة يوسف، الآية: ٤.

١٣- **Moon.** *Encyclopedia Britannica.* Retrieved April ٢١, ٢٠٠٩, from *Encyclopedia Britannica* ٢٠٠٦ Ultimate Reference Suite DVD.

الكونية عليه تعمل تلك العناصر على عكس الإشعاعات بخواص تعتمد على طبيعة العنصر الأولي العاكس للإشعاع. إن بعض العناصر الأولية على سطح القمر تُصدر إشعاعات جاما بدون الحاجة لتعرّض تلك المواد الأولية لأي نوع من الإشعاعات الكونية كاليورانيوم أو البوتاسيوم والثوريوم.

المطلب الثاني: شروق وغروب القمر:

يعتقد كثيرون أن القمر يشرق ليلاً ويغرب نهاراً، و هو اعتقاد غير صحيح، ففي الواقع يختلف وقت شروق و غياب الهلال من يوم إلى آخر، فالقمر يغير أطواره كاملة كل ٢٩،٥ يوماً تقريباً، حيث يمكن رؤيته يتحول من طور إلى طور، مبتدئًا بالمحاق، ومروراً بالهلال المتزايد، ثم التربيع الأول والأحدب المتزايد، ثم البدر والأحدب المتناقص، ثم التربيع الثاني، ثم الهلال المتناقص، وعودة إلى محاق الشهر الجديد.

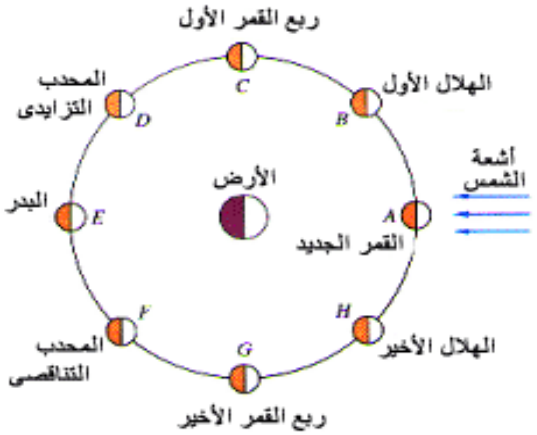

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾(١٤)

وفي جميع الأحوال يشرق القمر بعد شروق الشمس، ويغرب بعد غروبها، ويستمر في التأخر عنها، يقول الحق ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾(١٥) أي أتبعها و سار خلفها، فالقمر يتلو الشمس دائماً، ويتأخر عنها تدريجياً. وتبين الصورة كيف يتأخر غروب القمر عن غروب الشمس.

١٤- سورة يس، الآية: ٣٩.

١٥- سورة الشمس، الآيتان: ١ - ٢.

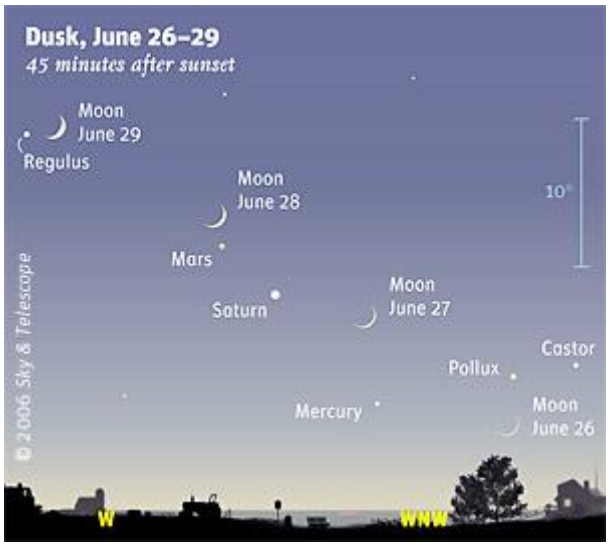

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾(١٦)

يعتمد وقت شروق القمر على طور القمر. فمثلا عندما يكون القمر محاقاً معتماً فهذا يعني أنه يشرق مع شروق الشمس ويغيب مع غيابها (بصورة تقريبية). وخلال طور الهلال المتزايد يكون شروقه بعد الشمس وغروبه بعد غروب الشمس، و في طور التربيع الأول يشرق القمر في منتصف النهار ويغيب في منتصف الليل. وفي طور البدر فهو يشرق مع غروب الشمس ويغرب مع شروقها(١٧).

فالأرض عندما تدور تبدأ الشمس بالغروب شيئاً فشيئاً ويبدأ الليل بالدخول. ودخول الليل نراه بأعيننا ثم تنتقل نقطة الغروب إلى منطقة أخرى، بل تتحرك نقطة الغروب لتلُفَّ الأرض كلها ثم تُعاد الكَرة، إذن كل نقطة من نقاط الأرض تخضع لغروب وشروق، أي أن هنالك مشارق ومغارب متعددة، وهذا ما نجده في كتاب الله تعالى حيث يقول: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾(١٨).

المبحث الثاني: تفسير العلماء للآية الكريمة موضوعة البحث:

يقول الحق جلّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾(١٩). وفي المطلبين

١٦- سورة الشمس، الآية: ٢.

١٧- **Moon.** *Encyclopedia Britannica.* Retrieved April ٢١, ٢٠٠٩, from *Encyclopedia Britannica* ٢٠٠٦ Ultimate Reference Suite DVD.

١٨- سورة المعارج، الآية: ٤٠.

١٩- سورة الإسراء، الآية: ١٢.

الآتيين نحدد معنى ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾:

المطلب الأول: التفسير اللغوي:

لغة: الفاء في قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ﴾ للتعقيب وجعل آية النهار وهي الشمس مبصرة، وروي عن مجاهد ـ وهو على نحو ضيق ـ الفاء تفسيرية لأن المحو المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين، بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته[٢٠]، وقيل محو القمر، إما خلقه مطموس النور، غير مشرق بالذات بل نوره من ضوء الشمس، فالفاء تفسيرية كما مر، وإما نقص القمر شيئاً فشيئاً بحسب الرؤية إلى أن ينمحق، وهو معنى المحو فالفاء للتعقيب[٢١]. قال ابن منظور في **لسان العرب**: آية: الآية: من التنزيل، ومن آيات القرآن العزيز وآيات الله عجائبه، والآية العبرة، والآية: العلامة، والآية من القرآن كأنها العلامة التي يُفضى منها إلى غيرها[٢٢]. وفي الآية القرآنية استعمل لفظ "محونا" والمحوُ عند اللغويين هو الطمس والإزالة، محا يمحوه ويمحاه محواً ومحياً: أذهبَ أثره[٢٣]. قال الكسائي: العرب تقول: أبصر النهار إذا أضاء. "وقال بعض نحويي الكوفة معناها: مضيئة، وكذلك قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ معناه: مضيئًا، كأنه ذهب إلى أنه قيل مبصراً، لإضاءته للناس البصر"[٢٤].

واصطلاحاً: إن الليل و النهار هما: النور و الظلمة المتعاقبان على وجه الكرة الأرضية، من حيث مواجهة الشمس بالطلوع و زوالها بالغروب، فالمراد بجعلهما آيتين هو أنهما خلقهما كذلك، فالأشياء كلها آيات له تعالى من أصل وجودها وكينونتها الدالة على مكوِّنها. ومن هنا فالمراد بمحو الليل إظلامه وإخفاؤه عن الأبصار على خلاف النهار.

والمعنى أن الله تعالى أزال وطمس ضوء القمر، والمحْوُ المقصود ليس إزالة كوكب القمر، فهو ما يزال موجوداً ولكن إزالة نوره وضوئه، وهذا واضح من العبارة القرآنية "آية الليل" وهي القمر و"آية النهار" وهي الشمس. والطمس يكون للنور ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ فجاء بكلمة

٢٠- الآلوسي، **روح المعاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١٥، ص ٢٦.

٢١- المصدر نفسه، ج ١٥، ص ٢٧.

٢٢- ابن منظور، **لسان العرب**، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، لبنان، حرف أ، ص ٢٨٢.

٢٣- المصدر نفسه، حرف الميم، ص ٤٣.

٢٤- ابن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م، (١٠ ٦٧) تفسير سورة الإسراء.

مبصرة وهي وجه المقارنة لتدل على أن المقارنة هي بين نور آية الليل القمر ونور آية النهار الشمس، فالأول انطفأ والأخرى بقيت مضيئة نبصر من خلالها. فالليل والنهار آيتان من آيات الله يعيش فيهما الإنسان، لكن الله سبحانه محا آية الليل وقدر فيها السكون والخمود، وجعل آية النهار مبصرة مدركة يطلب فيها الرزق ويعلم بها عدد السنين والحساب.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ الإضافة هنا بيانية، كما في إضافة العدد إلى المعدود، أي محونا الآية التي هي الليل أي: جعلناه مظلما، وإلى ذلك ذهب صاحب **الكشاف**. وجعلنا آية النهار مبصرة أي: مضيئة فهو مجاز بعلاقة السببية، أو الإسناد مجازي، والمراد يبصر أهلها، أو الصيغة للنسب أي ذات إبصارهم، أو هي من ـ "أبصره" ـ المتعدي أي: جعله مبصرا ناظرا. والإسناد إلى النهار مجازي أيضاً، من الإسناد إلى السبب العادي والفاعل الحقيقي: هو الله تعالى، أو من باب "أفعل" المراد به غير من أسند إليه فأبصرت الآية بمعنى: صار أهلها بصراء(٢٥).

وفي محو القمر قولان أحدهما: نقص نوره قليلاً قليلاً إلى المحاق، وثانيهما: جعله ذا كلف، وحمله على الوجه الأول أولى، لأن اللام في الفعلين بعد متعلق بما هو المذكور قبل، وهو: محو آية الليل، وجعل آية النهار مبصرة ومحو آية الليل إنما يؤثر في ابتغاء فضل الله تعالى، إذا حملنا محو القمر على زيادة نور القمر ونقصانه(٢٦).

المطلب الثاني: القمر كان متوهجاً في أول الخلق:

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله خلق شمسين من نور عرشه"، فما كان في سابق علمه أنه يدعها شمساً، فإنه خلقها مثل الدنيا على قدرها، ما بين مشارقها ومغاربها، وأما ما كان في سابق علمه أنه يطمسها ويجعلها قمراً، فإنه خلقها دون الشمس في العظم، فلو ترك الشمس كما كان خلقها أول مرة لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل، ولم يدر الصائم إلى متى يصوم ومتى يفطر، ولم يدر المسلمون متى وقت حجهم، وكم عدد الأيام والشهور والسنين والحساب، فأرسل جبريل فأمرَّ جناحه على وجه القمر، وهو يومئذ شمس، ثلاث مرات، فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور(٢٧).

٢٥- الآلوسي، **روح المعاني**، ج ١٥، ص ٢٦.

٢٦- المصدر نفسه، ج ١٥، ص ٢٧.

٢٧- الإمام جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، دار الفكر، بيروت، ص ٢٦٨.

وأخرج البيهقي في **دلائل النبوة** وابن عساكر، عن سعيد المقبري: أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السواد الذي في القمر؟ فقال: "كانا شمسين. فقال: قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فالسواد الذي رأيت من المحو"(٢٨). ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي الطفيل، قال: قال ابن الكواء لعلي: يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك أما تقرأ القرآن ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فهذه محوه(٢٩).

وأخرج ابن مردويه، عن علي رضي الله عنه في الآية. قال: كان الليل والنهار سواء، فمحا الله آية الليل فجعلها مظلمة، وترك آية النهار كما هي. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار، ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال: السواد الذي في القمر(٣٠).

هكذا استنبط الصحابة الكرام منذ أربعة عشر قرناً أن كوكب القمر كان يشعّ ضياءً ثم أذهب الله ضوءه وأزاله، وذلك من خلال تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، وروى الإمام ابن كثير في تفسيره أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال في تأويله للآية: "كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، وهو آية الليل، فمُحِي، فالسواد الذي في القمر أثر ذلك المحو"(٣١). كما روي من قبل عن قتادة ومجاهد بل إن ابن عباس قال: "كان القمر يضيء كما تضيء الشمس"(٣٢). المقصود بآية الليل القمر لأنه هو الذي ينير الليل، والمقصود بآية النهار الشمس، وأن الشمس الآية الملازمة للنهار.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ دالتين على قدرتنا ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ طمسنا نورها بالظلام لتسكنوا فيه والإضافة للبيان ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي مبصراً فيها بالضوء ﴿لِّتَبْتَغُواْ﴾ فيه ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بالكسب ﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ بهما ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ للأوقات

٢٨- البيهقي، ٦/ ٢٦١- ٢٦٢، وابن عساكر، ٢٩/ ١١٠- ١١٢.

٢٩- تفسير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تفسير الآية ١٢ من سورة الإسراء، ١٦٦٩٩.

٣٠- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القريشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ص٥٠.

٣١- الآلوسي، **روح المعاني**، ٢٦/ ١٥.

٣٢- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تفسير الآية ١٣ من سورة الإسراء، ٥/ ٥٠.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ﴾ يحتاج إليه ﴿فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ بيّناه تبييناً(٣٣).

﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ ولم يقل: فمحونا الليل، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لهما لا هما. ومحونا معناه طمسنا، و وجه القمر كان كالشمس في النور، والسواد الذي يرى في القمر من أثر المحو. قال ابن عباس: جعل الله الشمس سبعين جزءا والقمر سبعين جزءا، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعله مع نور الشمس، فالشمس على مائة وتسع وثلاثين جزءا والقمر على جزء واحد. وقال علي رضي الله عنه وقتادة: يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار(٣٤).

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ فيه وجهان من التفسير للعلماء(٣٥)، أحدهما: أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير: وجعلنا نيري الليل والنهار، أي الشمس والقمر آيتين، وعلى هذا القول، فآية الليل هي القمر، وآية النهار هي الشمس، والمحو: الطمس. وعلى هذا القول: فمحو آية الليل قيل معناه السواد الذي في القمر، وبهذا قال علي رضي الله عنه ومجاهد، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما كما ذكرنا آنفاً. أو جعلنا "الليل والنهار" ذوي آيتين، جعل متعديا إلى مفعولين، "الليل والنهار" هو المفعول الأول و"آيتين" الثاني فإن عكس كما استظهره أبو حيان وجعل "الليل والنهار" نصبا على الظرفية في موضع المفعول الثاني أي جعلنا في "الليل والنهار" آيتين وهما النيران لا يحتاج إلى تقدير، كما إذا جعل الجعل متعديا لواحد و "الليل والنهار" منصوبان على الظرفية كما جوزه المعربون(٣٦).

وقيل: معنى فمحونا آية الليل، أي لم نجعل في القمر شعاعاً كشعاع الشمس ترى به الأشياء رؤية بينة، فنقص نور القمر عن نور الشمس هو معنى الطمس على هذا القول. وغاية ما في الوجه المذكور من التفسير: حذف مضاف، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب إن دلت عليه قرينة. والقرينة في الآية

٣٣- **تفسير الجلالين**، مؤسسة الريان، بيروت، ط ٤، ١٤٢٧ هـ، ص ٢٨٣.

٣٤- **تفسير القرطبي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١٠، ص ١٤٩. انظر كذلك: السيوطي، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، ج ٩، ص ٢٦٧- ٢٦٨.

٣٥- محمد الأمين بن محمد بن المختار الجنكي الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، تفسير الآية ١٢ من سورة الإسراء، ص ٢٨٣.

٣٦- الآلوسي، **روح المعاني**، ج ١٥، ص ٢٦.

الكريمة الدالة على المضاف المحذوف قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ فإضافة الآية إلى الليل والنهار دليل على أن الآيتين المذكورتين لهما لا هما أنفسهما، وحذف المضاف كثير في القرآن(٣٧).

الوجه الثاني من التفسير: أن الآية الكريمة ليس فيها مضاف محذوف، وأن المراد بالآيتين نفس الليل والنهار، لا الشمس والقمر. وعلى هذا القول فإضافة الآية إلى الليل والنهار من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظ، تنزيلا لاختلاف اللفظ منزلة الاختلاف في المعنى، وإضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظ كثيرة في القرآن الكريم وفي كلام العرب(٣٨). ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ تعني طمسنا نورها بالظلام لتسكنوا فيه(٣٩). وقوله تعالى: ﴿ءَايَتَيْنِ ﴾ قيل التقدير: ذوى آيتين، ودل على ذلك قوله تعالى: "آية الليل، وآية النهار"، وقيل لا حذف فيه، فالليل والنهار علامتان ولهما دلالة على شيء آخر، فلذلك أضاف في موضع ووصف في موضع. قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ منصوب بفعل محذوف لأنه معطوف على اسم قد عمل فيه الفعل، ولولا ذلك لكان الأولى رفعه. ومثله ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ ﴾(٤٠).

﴿ءَايَتَيْنِ ﴾ مفعول ثانٍ، وكذا "مبصرة"، والمصدر "لتبتغوا" مجرور متعلق بـ: "جعلنا"، الجار "من ربكم" متعلق بنعت لـ: "فضلا". قوله "وكل شيء": مفعول به لفعل محذوف يفسره ما بعده، وجملة "فصَّلْناه" تفسيرية(٤١).

وهكذا تشير الآية الكريمة إلى حقيقة علمية لم تظهر إلا في القرن العشرين، وهي أن القمر كان في القديم كوكباً مشتعلاً ثم أطفأ الله تعالى نور القمر، ودلالة القرآن على هذا واضحة، وهكذا ذهب أكثر المفسرين جزاهم الله خير الجزاء.

٣٧- مثل قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ سورة يوسف، الآية: ٨٢. وقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ سورة النساء، الآية: ٢٣ أي نكاحها، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ سورة المائدة، الآية: ٣ أي أكلها، ونحو ذلك.

٣٨- فمنه في القرآن قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ...﴾ سورة البقرة، الآية: ١٨٥، ورمضان هو نفس الشهر بعينه على التحقيق، وقوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ﴾ سورة يوسف، الآية: ١٠٩ والدار هي الآخرة بعينها، بدليل قوله في آية أخرى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ﴾ سورة الأنعام، الآية: ٣٢ والآخرة نعت للدار.

٣٩- انظر: **مهذب تفسير الجلالين**، طبع في دمشق، ط ١، ١٤٢٣هـ، تفسير الآية ١٢ من سورة الإسراء، ص ٢٨٣.

٤٠- أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، **إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن**، المكتبة العربية، ص ٥٧.

٤١- عبد الله محمد ابن آجرّوم، **مشكل إعراب القرآن الكريم**، مكتبة مشكاة الإسلامية، ص ٤٢٦.

المطلب الثالث: ماذا يقول العلماء في القرن العشرين:

توصل العلماء إلى أن سطح القمر كان ملتهبًا يومًا ما، ذلك أن المجموعة الشمسية كلها كانت عبارة عن كرات نارية ثم تصلبت، لكن هذه الأجرام لم تتصلب في آنٍ واحدٍ، بل كان هناك تتابع في هذه العملية. ومن تلك الكواكب الشمس التي بقيت ملتهبة. والأجرام التي تتصلب أولاً هي الأعلى كثافة، وقد تبين أن كوكب الأرض هو الأعلى كثافة ٥،٥٢ غم/ س٣ يتبعه عطارد ٥،٤ أما القمر فكثافته ٣،٣٥ غم/ س٣. إذاً فقد تكثفت الأرض قبل القمر، وكانت الشمس وما تزال ملتهبة بفضل الله. كما أن هناك ظاهرتان ساهمتا في تأخير تصلب القمر: الظاهرة الأولى: إن القمر لم يتكثف مثل الأرض ذرة بذرة وطبقة طبقة، بل إنه عبارة عن تجميع لأجزاء متكثفة من السديم(٤٢). أما الظاهرة الثانية، وهي الأهم، فهي نمو جاذبية القمر مع تصلبه نتيجة زيادة حجمه، مما جعل سرعة اصطدام النيازك المصطدمة به عالية جدّاً فولد ذلك درجة حرارة فائقة، مما أوجد ظاهرة فريدة إذ صارت الطبقة الخارجية للقمر (١٥٠ـ٢٠٠كم) ملتهبة بينما لب القمر متصلب(٤٣). وقد جاء في **الإنسكلوبيديا**: "منذ أربع مليارات سنة ونصف، كان القمر مغطّى بالحمم البركانية المنصهرة والتي شكّلت محيطات من الحمم على سطح القمر"(٤٤).

لم يتيسّر للعلماء معرفة طبيعة القمر تماماً، حتى وطئ رائد الفضاء الأميركي "نيل آرمسترونغ" سطحه عام ١٩٦٩م. و بعد الدراسات الجيولوجية لسطحه، وتحليل تربته، وبواسطة الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية، استطاع علماء الفضاء القول كما جاء في وكالة الفضاء الأميركية ناسا: بأن القمر قد تشكل منذ ٤،٦ مليون سنة وخلال تشكله تعرض لاصطدامات كبيرة وهائلة مع الشهب والنيازك، وبفعل درجات الحرارة الهائلة تم انصهار حاد في طبقاته مما أدى إلى تشكيل الأحواض التي تدعى ماريا "Maria" مثل حوض "إمبريوم" و"سيرينيتاتس"، وقمم وفوهات تدعى كرايتر "Craters" والتي قامت بدورها بإطلاق الحمم البركانية الهائلة فملأت أحواضه بالحمم البركانية التي تدعى "بازلت". فالقمر كان في القديم كوكباً مشتعلاً، خضع لتوقد شديد، تبع ذلك خضوعه لتدفقات من الحمم البركانية، وما إن تقلص هيجان الحمم في الأحواض العظيمة، حتى توقفت بوضوح مصادر الاتقاد عند القمر. لكنه

٤٢- انظر القمر: **الموسوعة البريطانية**، مصدر سبق ذكره.

٤٣- Flint & kinner *Physical Geology,* ٢nd Edition, Editor: John Wiley & Sons, ١٩٧٦, p. ٤٦٣, ٤٦٧, ٤٧٢.

٤٤- انظر القمر: **الموسوعة البريطانية**، مصدر سبق ذكره.

انطفأ وذهب ضوؤه ثم برد، فتوقفت براكينه وانطفأت حممه، وبذلك انطفأ وأصبح غير نشط وطمس بعد أن كان في القديم كوكباً مشتعلاً ثم مُحي ضوؤه وانطفأ.

لقد سبق القرآن الكريم كل العلماء في ذكر حقيقة أن القمر كان يوماً ما مضيئاً بذاته، وهو ما كشفت عنه صور الأقمار الصناعية والدراسات والتحاليل الجيولوجية لسطح القمر في القرن العشرين. ووجه الإعجاز في الآية القرآنية الكريمة هو إشارتها إلى أن القمر كان له ضوء ثم انمحى وطمس فصار مظلماً، فقال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي محونا توهج القمر الذي بنهاره محى الليل. وعندما نتأمل في كتاب الله جل وعلا، ونتدبر آياته الكريمات، نجد الإعجاز العلمي واللغوي والبلاغي والعظمة والدقة التي لانظير لها في أيّ كتاب في الكون.

المبحث الثالث: فضل الله تعالى في آيتي الليل والنهار:

المطلب الأول: نعمة تعاقب الليل والنهار:

لابد من تبيان فضل الله في آيتي الليل والنهار، وقد أقسم بهما جلت قدرته، ولاسيما محو آية الليل. "فمن نعمته تعالى على الناس، إظلامه علامة الليل، وإضاءته علامة النهار، لتسكنوا في هذا، وتتصرفوا في ابتغاء رزق الله الذي قدره لكم بفضله، ولتعلموا باختلافهما عدد السنين وانقضاءها، وابتداء دخولها، وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها"(٤٥). ولو أردنا أن نحصي فضله تعالى في خلق الليل والنهار، فنحتاج إلى بحث كامل، ولقد جاءت كلمتا الليل والنهار متلازمتين ١٧ مرة في القرآن(٤٦). فالنوم آية من آياته، والعلم يذكر أنها عملية معقدة في عقل الإنسان وجهازه العصبي. وبمرور سريع نقتطف زهرات من الآيات الكريمات عن الليل والنهار لتبيان تصور عن أبعاد محو آية الليل.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعلنا شمسه مضيئة للأبصار. وجاء في **تفسير الطبري** أن الكسائي ذكر أن من قول العرب "أبصر النهار إذا أضاء، وصار بحالة يبصر بها"، ﴿لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد التصرف في المعاش. لم يذكر السكون في الليل اكتفاء بما ذكر في النهار. وقد قال تعالى في آية

٤٥- الطبري: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تفسير سورة الإسراء، الآية: ١٢.

٤٦- سورة البقرة، الآية: ١٦٤ وسورة آل عمران، الآية:١٩٠ وسورة الأنعام، الآية: ١٣ وسورة يونس، الآية: ٦ وسورة إبراهيم، الآية: ٣٣ وسورة النحل، الآية: ١٢، وسورة الإسراء، الآية: ١٢ وسورة الأنبياء، الآيتان: ٢٠ و ٣٣. وسورة المؤمنون، الآية: ٨٠. وسورة النور، الآية: ٤٤، وسورة الفرقان، الآية: ٦٢، وسورة القصص، الآية: ٧٣. وسورة سبأ، الآية: ٣٣. وسورة فصلت، الآية: ٣٧. وسورة الجاثية، الآية:٥. وسورة المزمل، الآية:٢٠.

أخرى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾(٤٧).

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾، فمن المعروف أن السنة إما أن تكون شمسية أو قمرية، ولو كان القمر مشمساً وفيه إضاءة ذاتية لما أمكن للإنسان حساب السنين، ذلك للالتباس بين ضوئه وضوء الشمس، فكأنما سيكون هناك شمسان. إذن فيه نعمة على خلقه، وهي معرفة عدد السنين والحساب، وباختلاف الليل والنهار يعلمون أيضاً عدد الأيام والشهور والأعوام، ويعرفون بذلك يوم الجمعة ليصلوا فيه صلاة الجمعة، ويعرفون شهر الصوم، وأشهر الحج، ويعلمون مضي أشهر العدّة لمن تعتد. ويعرفون مضي الآجال المضروبة للديون والإجارات ومتى يبذرون ويزرعون ونحو ذلك. فالله نظر إلى عباده وهو أرحم بهم من أنفسهم، فطمس الضوء وبقي فيه النور. ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ أي من أحكام التكليف؛ وهو مثل قوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾(٤٨)، و ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾(٤٩).

وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، وهو كذلك مرتبط بحياة البشر ومصالحهم واهتماماتهم ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، حيث كان البشر وما يزالون يهتدوا بالنجوم في الصحاري والبحار حيث لا توجد دلالات غير النجوم والكواكب. وفي العصر الحديث وإلى وقت قريب يستخدم الملاحون أجهزة الرصد لرصد النجوم أو القمر ليلاً أو رصد قرص الشمس نهاراً لمعرفة تعيين المكان بدقة. والاهتداء بالنجوم يحتاج إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله. فالنص القرآني يخاطب البشرية بهذه الحقائق فتجد مصداقها في واقع حياتها الذي تزاوله.

بيّن جل وعلا هذه الحكمة في آية أخرى في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾(٥٠). وقوله جل وعلا: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ ﴾(٥١)، إلى غير

٤٧- سورة يونس، الآية: ٦٧.

٤٨- سورة النحل، الآية: ٨٩.

٤٩- سورة الأنعام، الآية ٣٨.

٥٠- سورة يونس، الآية: ٥.

٥١- سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

ذلك من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾[٥٢] أي تصرفا في إشغالك لا تفرغ فيه لتلاوة القرآن[٥٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ فيه خمس مسائل[٥٤]، الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال العلماء: ناشئة الليل أي أوقاته وساعاته، يقال: نشأ الشيء ينشأ: إذا ابتدأ وأقبل شيئا بعد شيء، فهو ناشئ وأنشأه الله فنشأ. الثانية: الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها أعظم للأجر وأجلب للثواب. الثالثة: قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا﴾ المعنى أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار، وذلك أن الليل وقت منام فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة. الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ أي القراءة بالليل أقوم منها بالنهار؛ أي أشد استقامة واستمرارا على الصواب؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة. الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ السبح: الجري والدوران، ومنه السابح في الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه، وقيل: السبح الفراغ؛ أي إن لك فراغا للحاجات بالنهار. وعن ابن عباس وعطاء: ﴿سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ يعني فراغا طويلا لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك، وقال الزجاج: إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار فراغ الاستدراك. وهذا ما ذكره الطبري.

المطلب الثاني: ماذا لو جُعل الليل أو النهار سرمداً:

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[٥٥]. لقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية، فمنهم من رأى أن المقصود بالليل والنهار حقيقتهما والمعنى الحرفي لهما وقد ذهب إلى ذلك أغلب المفسرين. وقد ضُرب بهما مثل للكفر والإيمان هذا ما رآه ابن عاشور في تفسيره **التحرير والتنوير**[٥٦].

وقوله تعالى: ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ﴾ إن أراد الله أن يجعل عليكم. السرمد بمعنى الدائم،

٥٢- سورة المزمل، الآية: ٧.

٥٣- **تفسير الجلالين**، ص ٥٧٤.

٥٤- **تفسير القرطبي**، المجلد العاشر ١٩-٢٠، ص ٢٧- ٢٩.

٥٥- سورة القصص، الآيتان: ٧١ - ٧٢.

٥٦- انظر: محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، ١٥ مجلد (٣٠ جزء).

وقيل: هو من السرد والميم زائدة ومعناه المتتابع المطرد. وقوله: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أي من الذي ينقض حكم الله تعالى ويأتيكم بضياء تستضيئون به وتسعون في طلب المعاش، هذا ما يشهد به السياق، ويجري نظيره في قوله الآتي: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ﴾ إلخ. وقوله: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ أي سمع تفهم وتفكر حتى تتفكروا فتفهموا أن لا إله غيره تعالى. قوله تعالى: ﴿بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِ﴾ أي تستريحون فيه مما أصابكم من تعب السعي للمعاش. وقوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ فإذ لم يبصروا ولم يسمعوا فهم عمي صم، ومن اللطيف تذييل الآيتين بقوله: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ ولعل آية النهار خص بالإبصار لمناسبة ضوء النهار الإبصار وبقي السمع لآية الليل وهو لا يخلو من مناسبة معه.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[57] قوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ اللام للتعليل والضمير لليل، أي جعل لكم الليل لتستريحوا فيه، وقوله: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي وجعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الذي هو عطيته. ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾ و ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ تعودان إلى الليل و النهار حسب الترتيب، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ راجع إليهما جميعا.

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا﴾ يعتقد الباحث أن المقصود بذلك إما أن تكون الأرض كلها ليلاً، أي بدون الشمس، وهذا يعني نهاية الإنسان على سطح الأرض، أو أن يكون نصف الأرض ليلاً دائماً والنصف الآخر نهاراً دائماً كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا﴾، وذلك بتوقف حركة الأرض مع بقاء الشمس، ففي هذه الحالة يصبح من غير الممكن الحياة على سطح الأرض بسبب تدني درجات الحرارة دون الصفر بكثير "ربما أكثر من مائة تحت الصفر" في المناطق التي يغطيها الليل، وبالمقابل ترتفع درجة الحرارة في المناطق التي يغطيها النهار بدرجة يتعذر العيش فيها "ربما تصل الحرارة فيها إلى أكثر من مائة درجة مئوية". أما المناطق البينية وهما منطقتان على الأرض، الأولى منطقة يكون فيها فجراً أو صباحاً، والثانية عصراً أو عند المغيب، فهاتان المنطقتان ستشهدان هبوب عواصف عاتية مستمرة تنبعث من منطقة الليل إلى منطقة النهار، حيث كثافة الجو في المناطق الباردة أكثف بكثير من كثافة الجو في المناطق الحارة، فتندفع العواصف العاتية عليها باستمرار دون انقطاع، والله أعلم. وهذه نعمة أخرى من نعم الله على الإنسان التي لا تعد ولا تحصى.

٥٧- سورة القصص، الآية: ٧٣.

المبحث الرابع: تفسير الباحث للآية الكريمة:

تفسير ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾:

يمكن تبيان تأثير محو آية الليل في أهم مجالين اثنين، وهما: تأثير حرارة القمر المستعر وإشعاعاته على الأرض، أي "وجود شمسين إذا جاز التعبير"، والمجال الثاني هو التأثير على الليل والنهار، حيث يكون هناك نهار طبيعي هو نهار الشمس، ونهار القمر الذي يتلاحق ويتداخل مع النهار الطبيعي بشكل منتظم، مما يؤدي إلى محو آية الليل تدريجياً، وهو ما يحاول الباحث الوصول إليه.

المطلب الأول: تفسير ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ تعني محو الليل نفسه في بداية الخليقة:

يمكن حساب تأثير القمر المشمس على الليل والنهار من خلال حسابات علمية دقيقة، في أية بقعة من بقاع الأرض، حيث يتوقف وقت شروق القمر وغروبه على عوامل عدة، هي: الموقع الجغرافي شمال أم جنوب خط الاستواء، شرق أم غرب خط غرينتش. وكذلك يعتمد على التاريخ في أيّ يوم وأيّ شهر من أيام السنة.

فمثلاً في الحسابات النظرية الدقيقة لهلال شهر شوال ١٤٢٧هـ، حسب أفق مكة المكرمة والمناطق المجاورة لها[٥٨]: كانت ولادة القمر "الاقتران وليس ظهور الهلال" يوم ٢٩ رمضان قبل غروب الشمس بتسع ساعات وست وثلاثين دقيقة، وكان شروق الشمس والقمر بالساعة ٦:١٩، وكان غروب الشمس بالساعة ٧:٥١ وكذلك تم غروب الهلال مساء ذلك اليوم بُعَيد غروب الشمس بأقل من دقيقة، أي أن غروب القمر جرى عملياً مع غروب الشمس. وكان يوم الاثنين بداية لشهر شوال حسب التقويم القمري الاصطلاحي المبني على الحسابات الفلكية وليس للرؤية البصرية. وحيث أن حجم الهلال ١/ ٨٠٠ من قرص القمر وإضاءته ٠،٢٣٪ وكذلك ارتفاعه لحظة غروب الشمس حوالي الصفر فمن الناحية العملية لم يكن بالإمكان رؤية الهلال مساء ذلك اليوم، حيث غربت الشمس بالساعة ١٧:٥٠، وكان غروب القمر بعدها بالساعة ١٨:٢٨ . وكان يوم الثلاثاء أول أيام شهر شوال حيث غربت الشمس بالساعة ١٧:٥٠ ثم كان غروب القمر بالساعة ١٨:٠٨ .

نفهم مما تقدم أن ولادة القمر "الاقتران" تكون عندما يصبح على استقامة واحدة مع الشمس والأرض، وهو عندئذ "في ذلك اليوم فقط" يشرق مع الشمس ويغرب معها، بعدها يتأخر شروق

٥٨- علي بن محمد الشكري، **هلالا شهري رمضان المبارك و شوال**، إصدارات قسم الفيزياء بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن.

وغروب القمر عن مواعيد شروق وغروب الشمس تدريجياً، ففي أول يوم من الشهر القمري يتأخر الغروب ٣٨ دقيقة، وفي اليوم التالي يتأخر ساعة و ثلاث دقائق، وهكذا.. وهذا يعني تناقص مستمر في طول الليل، فعندما تغرب الشمس يبدأ نهار القمر، ولا يحدث الليل إلا بعد غروب القمر الذي يستمر بالتأخر ليلة تلو الأخرى. وكذا كان تأخر موعد شروق القمر عن الشمس: ففي الأول من شوال ١٤٢٧هـ تأخر شروق القمر ٥١ دقيقة، وفي اليوم التالي تأخر ساعة و٤٦ دقيقة(٥٩).

وهكذا نجد في اليوم السابع من الشهر القمري أن القمر لا يغرب إلا في منتصف الليل، أي أن نهار القمر يمحو نصف الليل. وفي ليلة ١٤/ ١٥ من الشهر القمري يشرق القمر "البدر" عند غروب الشمس تماما ويغرب عند طلوع الشمس، بعبارة أخرى أن نهار القمر لم يبقِ شيئاً من الليل، أي أنه محى الليل في تلك الليلة تماماً.

وفي النصف الثاني من الشهر القمري يبدأ شروق القمر بعد غروب الشمس بساعات، فيعود الليل يتكون من جديد بعد غروب الشمس، فيكون طوله يوم ١٦ من الشهر القمري ساعة إلى ساعتين ثم تزداد مدة الليل في كل ليلة، ففي يوم ٢١ من الشهر القمري يكون طول الليل نصف طول الليل الطبيعي ويستمر بالزيادة حتى يوم ٢٨، وفي اليوم التالي (المحاق: ولادة القمر الجديد) يصبح الليل طبيعياً إذ يشرق القمر ويغرب مع شروق وغروب الشمس.

ونتيجة لذلك يجد الباحث أن المقصود بقوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ يعني محونا الليل نفسه بنهار القمر المتوهج ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ حيث بقي النهار الطبيعي ونهار القمر لمدة ٢٤ ساعة، والله أعلم. ولا شك أن ذلك سيكون له تأثيرات كبيرة على حياة الإنسان على سطح الأرض، وهذا ما سنوضحه في فقرات لاحقة. وهذا التفسير لم نجده في أي من كتب المفسرين قديماً وحديثاً. باستثناء ماذكره الآلوسي: "وقيل معنى محو الليل إزالة ظلمته بالضوء، وقيل أن الظلمة هي الأصل والنور طارئ فيكون الليل مخلوقاً مطموس الضوء فالمراد بيان أن الله تعالى خلق الزمان ليلا مظلما ثم جعل بعضه نهارا بإحداث الإشراق لفائدة ذكرها سبحانه"(٦٠). وهو هنا تحدث عن الليل والنهار فحسب ولم يتطرق إلى نهار القمر.

ولربما تساءل المرء: لماذا كان القمر وهاجاً ثم اطفأ وهجه؟ فالجواب أنها الإرادة الربانية في سياق

٥٩- هذه التوقيتات في منطقة مكة المكرمة فقط.

٦٠- الآلوسي، **روح المعاني**، ج ١٥، ص ٢٦.

خلق السموات والأرض، ألم يخلق الله تعالى الأرض في يومين ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾(٦١)، فاستغرقت العناية الإلهية مدة كمدة خلق الأرض لكي يبارك فيها ويعتني برزق الإنسان ويوفر له الحاجات والخيرات وكل ما يحتاجه خليفته في الأرض إلى يوم القيامة، وهذه نعم أخرى من نعمه تعالى على بني الإنسان، وكان بمقدوره جل وعلا أن يخلقها مع خلق الأرض في مدة وجيزة في قوله "كن".

المطلب الثاني: تفسير ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ تعني محو ضوء القمر:

إن درجة تأثير أشعة وحرارة القمر المشمس على سطح الأرض تتأثر بعاملين هما، الأول: المسافة، حيث يتناسب التأثير عكسياً مع المسافة "فكلما زادت المسافة قل التأثير، وكلما قلت المسافة زاد التأثير"، والعامل الثاني: الكتلة حيث يتناسب التأثير طردياً مع الكتلة "كلما زادت الكتلة زاد التأثير".

فلو افترضنا أن درجة توهج القمر المشمس كانت بقدر حرارة الشمس، فكيف كان تأثير ذلك على الأرض؟ ولحساب عامل المسافة، فإن بعد القمر عن الأرض ٣٨ الف كيلو مترا، وبعد الشمس عن الأرض هو: ١٤٩٦٠٠٠٠٠ كيلو متر، أي أن القمر أقرب من الشمس عن الأرض بمقدار: ٣٩٤ مرة، وهذا يعني أنها ستكون أشد تأثيراً على الأرض من الشمس ٣٩٤ مرة، ولكن كتلة وحجم القمر أقل من كتلة وحجم الشمس.

ولحساب عامل الكتلة، فإن الشمس تعادل تقريباً ٥٩٩٣٠٢٨ مرة كتلة القمر، فلو افترضنا أن حرارة القمر المشمس كانت بقدر حرارة الشمس، فإن تأثيرها على الأرض أقل "بمقدار نسبة وتناسب كتلتيهما" من تأثير الشمس، وحيث أن كتلة القمر أقل بكثير من كتلة القمر فتأثير أشعة القمر وحرارته سيكون أقل من أشعة وحرارة الشمس، وناتج نسبة وتناسب الكتلة يكون مضروباً في ٣٩٤ مرة لأن القمر أقرب إلى الأرض. وبذلك تكون نتيجة المعادلة نسبة بسيطة من مقدار تأثير الشمس على الأرض. وحيث أنه من المستحيل تقدير كم كانت درجة حرارة القمر المشمس أو المتّقد، فإنه لايمكن التكهن بدرجة تأثيره على الأرض لكنا لانذهب فيما ذهب إليه آخرون في تخطئة ابن عباس رضي الله عنهما تحت ذريعة إن المسافة الضئيلة بين القمر وبين الأرض تجعل من المستحيل التسليم بهذا القول لأنه لابد للقمر حينئذ أن يحرق الكرة الأرضية، فالقضية تحتاج إلى حسابات، وهي ليست بهذا الإطلاق.

٦١- سورة فصلت، الآيتان: ٩ - ١٠.

وفي جميع الأحوال فأن القمر المشمس كان طاقة حرارية وشعاعية مضافة لطاقة الشمس، من شأن ذلك أن يرفع درجة حرارة الأرض ويؤثر عليها بدرجة لايمكن التكهن بها ولا يعلمها إلا الله، وفي جميع الأحوال يتعذر التكهن بدرجة اتقاد القمر في ذلك الحين. ومن رحمته تبارك وتعالى أن اطفأ ضوء القمر الذاتي المؤثر على سطح الأرض فمحى بذلك طاقة القمر التي كانت مضافة إلى حرارة الشمس، لتستقيم وتنتظم حياة الإنسان والحيوان والنبات على سطح الأرض. وهذا التفسير يأتي منسجماً مع ما ذهب إليه المفسرون والفقهاء.

المطلب الثالث: تفسير ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ تعني محونا الليل نفسه في أطراف شمال الأرض وجنوبها:

من المعلوم أن الأرض تميل في حركتها بمقدار ٢٣.٤٥ درجة[٦٢]، وهذا الميلان من شأنه أن يحدث مواسم الفصول الأربعة خلال دورة الأرض حول الشمس، فبسبب الميلان، تتعرض المناطق الشمالية من الأرض إلى مواجهة الشمس، فيما تكون المناطق الجنوبية بعيدة عن مواجهة الشمس.

ففي بقاع شاسعة من شمال الأرض، حيث الدول الأسكندنافية، نجد في فصل الصيف أن النهار يقترب من ٢٤ ساعة، ولا تغيب الشمس فيها إلا لفترات قليلة، حيث تغيب الشمس لدقائق وتشرق من مكان مجاور لمكان الغروب. وهذا الوصف هو ماذكره الحق سبحانه في تبيانه لقصة ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾[٦٣]، لأن الشمس لاتغيب عنهم في تلك المناطق "في الصيف فقط".

وتفسير هذه الآية الكريمة، في كونها في شمال الكرة الأرضية يخالف مع ما جاء في تفاسير عدة، مثل "قال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئًا، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: هم الزنج. وقال ابن جريج قال: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يبن عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابًا لهم حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل"[٦٤]. وفي تفاسير أخرى "وجد ذو القرنين الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا، وذلك أن أرضهم لا جبل

٦٢- انظر الأرض: **الموسوعة البريطانية**، مصدر سابق.

٦٣- سورة الكهف، الآية: ٩٠.

٦٤- **تفسير ابن كثير**، تفسير الآية ٩٠ من سورة الكهف.

فيها ولا شجر، ولا تحتمل بناء، فيسكنوا البيوت، وإنما يغورون في المياه، أو يسربون في الأسراب"(٦٥). لكني أفهمها مناطق الدول الأسكندنافية الحالية، والله أعلم، حيث الشمس تبقى مشرقة ولا تحجب بالغروب.

لقد راودت الباحث فكرة أن مناطق الدول الأسكندنافية ربما لا يمكن فيها مشاهدة كسوف الشمس ـ فلا يحجب القمر ضوء الشمس ـ ولكن ذلك سرعان ماثبت بطلانه، بعد مراجعة تقارير عديدة في شبكة الإنترنيت أكدت أن الدول الأسكندنافية حصل فيها كسوف كلي للشمس مرات عديدة. أما المناطق المجاورة للقطب الجنوبي فهي ليست مأهولة بالسكان. والأرجح أن ذي القرنين عندما بلغَ ﴿مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ وهي مناطق الأراضي المنخفضة ـ هولندا وماجاورها ـ حيث وجد الشمس ﴿تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ اتجه بعد ذلك ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ إلى الشمال منها حيث الدول الأسكندنافية، لسببين، الأول: سهولة التنقل في موسم الصيف، وليس من المعقول أن يتوجه ذو القرنين بجيشه إلى تلك المناطق شتاءً لأنها باردة جداً، وثانياً: لكون تلك المنطقة مأهولة بالسكان، ويستبعد توجهه إلى منطقة غير مأهولة. وثالثاً: إنه يعرف أن في تلك الأرجاء من الأرض نهاراً مستمراً في تلك الفترة ونستبعد أن يتوجه إلى منطقة فيها ليل دائم. والله أعلم.

أما في منطقة القطب الجنوبي وما حولها فيكون الليل دائماً في شهور "منتصف السنة الميلادية"، ولا تظهر الشمس إلا لوقت قصير جداً تقترب فيه من خط الأفق ثم تغرب قليلاً أو لا تغرب، في حين يكون النهار فيها دائماً في نهاية وبداية السنة الميلادية، أي بعكس النصف الشمالي. فالصيف في الشمال نهار دائم يقابله شتاء في الجنوب وليل دائم، ثم يتبادل الوضع، ففي بداية السنة الميلادية تكون المناطق الشمالية من الأرض شتاء وليلاً مستمراً فيما تكون المناطق الجنوبية صيفاً ونهاراً مستمراً. وحال الأرض هكذا مستمر مذ خلق الله السموات والأرض. فمحونا آية الليل تعني محونا الليل نفسه ومانزال نمحوه في أطراف شمال الأرض صيفاً، وفي جنوبها شتاءً. والله أعلم.

نتيجة البحث:

لقد توصل هذا البحث إلى تفسيرات ثلاث في فهم معنى ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾. ففي المطلب الأول كان تفسيرها: محو الليل نفسه في بداية الخليقة، أي أن القمر عندما كان وهاجاً ومشمساً في بداية الخلق فإنه محى الليل وبقي النهار مبصراً، وكان ذلك مرحلة مبكرة من مراحل بدء الخليقة، فكان ضوؤه،

٦٥- **تفسير الطبري**، تفسير الآية ٩٠ من سورة الكهف.

أي نهار القمر، يؤثر على مدة الليل وزمنه بدرجة كبيرة، وكان نهار القمر يستمر بعد غروب الشمس، وكان الليل ينقص تدريجياً في النصف الأول ومع تقدم الشهر القمري حتى يختفي الليل تماماً في منتصف الشهر القمري (ليلة ١٤/ ١٥)، ثم يعود الليل فيبدأ بعد غروب الشمس لساعات قليلة تزداد ليلة بعد أخرى حتى نهاية الشهر القمري، وإذ ذاك يعود الليل طبيعياً لمدة ليلة واحدة (ليلة المحاق) ثم تعاد الكرة فيمحو ضوء القمر الليل تدريجياً وهكذا. وهذا التفسير لم يذكر في أي من كتب المفسرين الأجلاء.

أما التفسير الثاني فمعناه محونا ضوء القمر، فقد كان محو توهج القمر ضرورياً جداً لتخفيف وانتظام درجة الحرارة على سطح الأرض من جهة واستقرار الليل وانتظامه، بما يسهّل حياة الإنسان على الأرض. وهذا التفسير يأتي مكملاً للتفسير الأول آنفاً ومتوافقاً معه.

أما التفسير الثالث فمعناه محونا الليل نفسه، ومانزال نمحوه، في أطراف شمال الأرض صيفاً، وفي جنوبها شتاءً. وذلك من خلال ميلان الأرض حول محورها ودورانها حول الشمس لتنتج الفصول الأربعة في معظم مناطق الأرض باستثناء منطقة القطبين وما جاورهما. والله أعلم.

وهذه التفاسير الثلاثة، وربما وُجِدَ غيرُها، تنبعث من إعجاز آية كريمة في كتاب الله، التي تأتي بألفاظ محددة، يفهمها أهل كل عصر وزمان بمعنى من المعاني، وتظل هذه المعرفة تتسع باستمرار، مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد ولا التناقض. فإن أصبت فبفضل من الله وإن أخطأتُ فمن عندي، ومن الله التوفيق.

الخاتمة:

الشمس والقمر آيتان، والآية في اللغة هي الدليل والبرهان والمعجزة، وهما دليلان على عظمة الخالق ودقة صنعه وإبداعه. وكذلك الحال بالنسبة لليل والنهار. إن السماوات والأرض من أضخم المجالات في الوجود، وهنالك الظواهر الناشئة عن خلق السماوات والأرض وفق تدبير مقصود، كالظلمات والنور، والأجرام الضخمة في الكون المنظور، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك، فصفحة السماء الضخمة الهائلة الشاسعة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم، وهو الله في السماوات وفي الأرض. وهذه الآيات ينبغي علينا أن نتدبرها ونتفكر فيها، ولا يكفي أن ننظر إلى الشمس أو القمر دون أن نشغّل عقولنا ونبحث في النظام الدقيق والقوانين المحكمة التي أودعها الله تعالى في هاتين الآيتين العجيبتين. هذا وقد تطلب الوصول إلى المعنى

الاستعانة بآيات كريمات لبلوغ الفهم، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[٦٦]. إن هذا القرآن المجيد كان وما يزال كنزاً لعلوم السماوات والأرض والأكوان جميعاً، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٦٧] وسيبقى كتاب الله كما هو عزيزاً في الحاضر والمستقبل. ومهما يكتشف العلماء ورواد الفضاء والمركبات الفضائية من أسرار الكون سيجدونه مكتوباً في المصحف الشريف. والحمد لله رب العالمين.

****

٦٦- سورة المزمل، الآية: ٤.

٦٧- سورة فصلت، الآيتان: ٤١ - ٤٢.